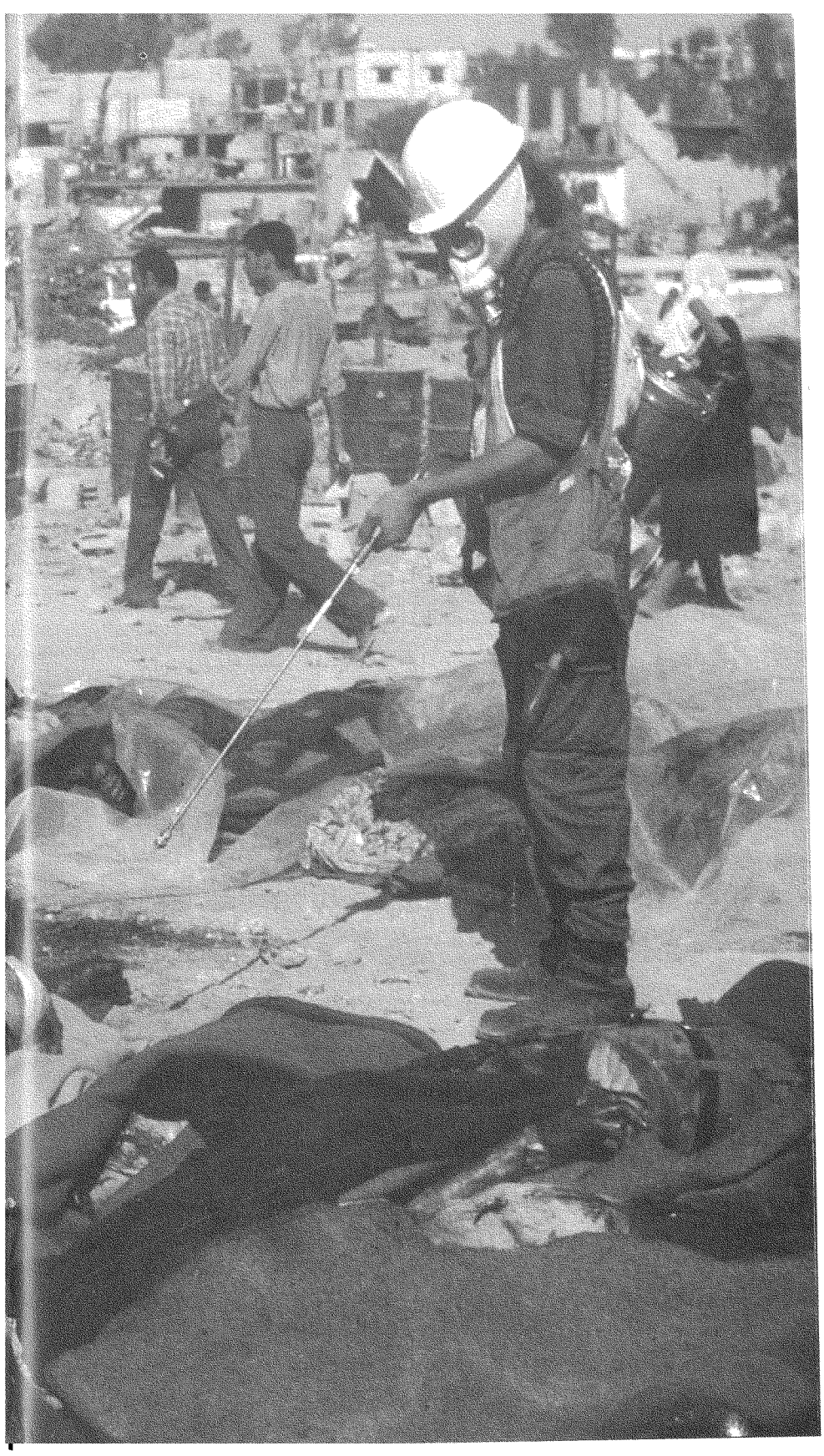

فصل من رواية

باب الشمس

لـ «الياس خوري»

عن دار الآداب في بيروت تصدر مطلعَ الشهر القادم رائعةُ إلياس خوري الروائية الملحميّة الجديدة: باب الشمس.
وفيما يلي نورد فصلاً من فصولها.

ذهبتُ بدافع الفضول، فأنا لا أعرف المنطقة الشرقيَّة في بيروت، ولم يسبق أن التقيتُ أحد هؤلاء الذين حاربناهم وحاربونا. الحرب الأهلية صارت مثل منام طويل، كأنَّها لم تحدث. أشعر بنكهتها تحت جلدي ولكنِّي لا أصدقها. لم يبق منها سوى الصور. حتى مذبحتنا هنا في المخيم، والذباب الذي افترسني، أرى ذلك أمامي كأنَّه صورة. كأنَّني لا أتذكَّر بل أشاهد. لا أنفعل بل أصاب بالدهش. غريب، أليس كذلك؟، غريب أن تمرّ الحربُ كالمنام.

وأنتَ، ما رأيك؟

لو حكيتَ، لقلت إنّ العمر كله يبدو كمنام. ربما كنتَ الآن، في نومك الطويل، تطفو فوق الأشياء، كما تطفو العيون فوق الصور.

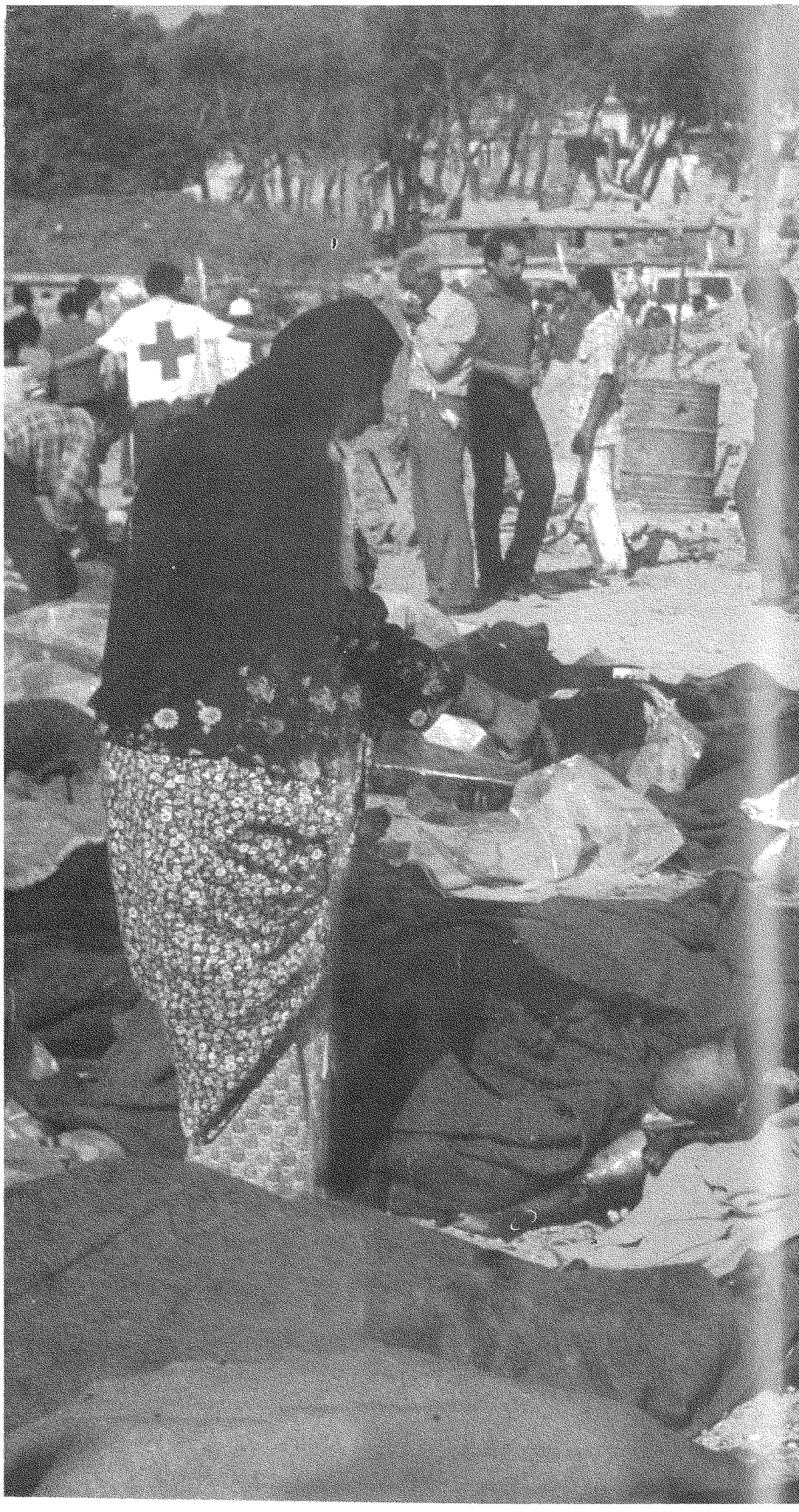

ذهبنا إلى مطعم «الريِّس»، وجلسنا ننتظر، لكنَّه لم يأتِ.

جلسنا حول طاولة تتسع لأربعة أشخاص. طلب الصحافي كأسين من العرق، وصحن حمص، وصحن تبولة، وانتظرنا. ثم دخلتْ مجموعةٌ من الشبان، رؤوسهم مدوَّرة، وشعورهم مقصوصة على طريقة شباب «القوات اللبنانيَّة».

«نصري»! صرخ جورج بارودي؛ ونهض عن كرسيه واحتضن هذا النصري.

«شو عم تعمل هون»؟ سأل نصري.

«شو عم بعمل؟ عم بسْكر»، أجاب جورج.

«قوم اسكر معنا»، قال نصري.

«ما بقدر معي ضيف، وبعدين ناطر الريِّس جوزف».

ولم أجد نفسي إلا على طاولتهم. كانوا ستة شبان، وفتاة سمراء، تلبس تنورة قصيرة جدّاً، وقميصًا مشقوقًا أسفل صدرها، بدا لي أنَّها صديقة نصري، لأنَّها كانت تضع يدها على يده، كلما سنحتْ لها الفرصة.

كانوا يضحكون ويسكرون ويأكلون ويُخبرون النكات. حاولتُ الانسجام معهم لكنِّي لم أستطع، كأنّ فمي كان مغلقًا بحجر، أو كأنَّني تحاشيتُ لهجتي الفلسطينيَّة.

جورج كسر الحواجز، وأخبرهم عن هويتي الحقيقيَّة: «نسيتُ أن أقول لكم إن الدكتور خليل يعمل في الهلال الأحمر الفلسطيني، في مخيم شاتيلا».

«أهلاً، أهلاً»، قال نصري.

«أنت فلسطيني»؟ سألني.

«نعم، نعم، أنا فلسطيني».

«من شاتيلا»؟

«نعم، نعم، أقيم في شاتيلا، ولكنّ الأصل من الجليل».

«أنا أعرف الجليل جيدًا»، قال، وبدأ يروي، وسط استحسان رفاقه، عن دورة مظليين شارك فيها في الجليل.

«هل زرتَ فلسطين»؟ سألني.

«لا»، أجبته.

«أنا أعرفها، واللّه بلادكم جميلة، تشبه لبنان كثيرًا، لكنَّ اليهود رتَّبوها ونظَّموها. ترتيب مذهل، حدائق وماء وبرك سباحة، كأنَّك في أوروبا».

قال إنَّهم تلقوا تدريبهم في قرية فلسطينية مهجورة. القرية ما تزال على حالها، ولكنَّ الأعشاب البريّة نبتت في كل مكان.

«ما اسم القرية»؟ سألته.

«لا أعرف، هم لم يقولوا اسم القرية، ونحن لم نسأل».

«إنَّها قرية صغيرة»، قال شاب آخر اسمه مارو، «وفي

وسطها صخرة كبيرة».

قال نصري إنَّه أطلق النار على شجرة، كي يتسلَّى، فنهره المدربُ الإسرائيلي، وقال له إنَّ حظه كبير لأنَّه أخطأها، لأنَّهم في إسرائيل يحبُّون الشجر كثيرًا ويمنعون قطعه أو الاعتداء عليه.

«يعتنون بأشجارنا»، قلتُ.

«لو تراها، المنطقة كلها مزروعة بالصنوبر، يا عيني ما أحلى الصنوبر، كأنَّك في لبنان».

«صنوبر»! «ولكنَّها منطقة زيتون».

«اليهود لا يحبُّون الزيتون، إما صنوبر أو نخيل».

«قتلوا الأشجار»، قلت.

«لا، اقتلعوها، وزرعوا مكانها».

كان نصري يُدخل بعضَ الكلمات العبريَّة التي لم أفهمها، كي يثبت لي صحة كلامه، ويقول إنَّه كان أبله لأنَّه صدق الحرب، فالحرب لا معنى لها. وقال إنه سيسافر قريبًا إلى أميركا من أجل إكمال دراسته في هندسة الكومبيوتر.

والغريب يا سيدي، أنَّني استمعت إلى هذا الفتى الذي قفز بمظلته فوق الجليل، دون أي حقد. كنت أعتقد أني حين سألتقي بواحد من هؤلاء، لن أتمالك نفسي. لكنِّي، في ذلك اليوم، كنت أشرب العرق وأضحك لنكاتهم، وأرى تلك الفتاة وهي تحاول الإمساك بيد نصري، ونصري يسحب يده من يدها، وجورج يراقبني وينظر إلى ساعته، ويتأفف لأنَّ جوزف تأخر.

«هيدا جوزف تبعك فنَّاص»، قال أحدهم. وبدأ يروي عن جبن جوزف، خاصة في معركة «الهوليداي إن»، حين رمى بنفسه من الطابق الرابع هاربًا، وركض على رجله المكسورة.

«حشاش وعكروت»، قال آخر.

«ليك ملاّ آخرة، صار ريّس قال، لَمن ما بقى في ريّاس»، قال نصري.

أحسستُ رغبةً في الدفاع عن الريّس جوزف، فكَّرت أنَّهم يستغيبونه، فلو كان هنا لترَيَّسَ عليهم، أما جُبنه فلم أصدقه، خاصة بعد أن روى لي صديقي الكاتب عن وحشيته الخاصة، خلال مذبحة شاتيلا. لكنِّي فضلتُ السكوت. كنت في وضعية غريبة، كيف أصفها لك، لا واللّه، أنا لا أقول إنَّه لم تحصل جرائم، نحن أيضًا قَتَلنا ودَمَّرنا، ولكنْ في تلك اللحظة شعرت بتفاهة الجريمة، فالجريمة لا معنى لها، ونحن مجرَّد أدواتها. نحن لا شيء، نحارب ونقتل ونموت ولا شيء، مجرَّد وقود آلة ضخمة اسمها الحرب. وقلت لا يمكن، خاصة مع نصري هذا، شعرت أنَّني أقف أمام مرآة، كأنَّه يشبهني! لو كنت قادرًا على الكلام لتكلَّمتُ أكثر منه، لكنّ حجرًا كبيرًا أغلق فمي. ثم بدأ الحجر يتفتَّت على إيقاع يد الفتاة التي تمتد إلى يد نصري وتنحسر عنها. كان يشرب العرق بطريقة خاصة، يمصّ الكأس مصًّا، يترك قليلاً من سائل العرق الأبيض على شفته التي يلحسها بلسانه. كان فتى أبيض البشرة، ممتلئ الكتفين، أعتقد أنَّه يمارس رياضة كمال الأجسام، لأنَّ صدره كان يرتجف بالعضلات المختبئة تحت قميصه الأزرق، وكان يعود بشكل دائم إلى حكاية دورة المظليين التي شارك فيها، وكيف شعر أنَّه يطير في إسرائيل.

قال «إسرائيل»، ونظر إليَّ كمن يعتذر، «عفوًا، عفوًا، فلسطين، روح انبسط». قال إنَّه طار فوق فلسطين، ونظر إليّ بعينين مليئتين سخريةً وتواطؤًا.

بعد أن أنهيتُ كأسي الثالثة، سألتهم عن الحرب، «ماذا تشعرون الآن»؟

«لا نشعر بشيء»، قال نصري.

«وأنت»، سألني؟

«أشعر بالحزن»، قلت.

قال نصري إنَّه ليس نادمًا أو حزينًا على أصدقائه الذين ماتوا في الحرب. «فالحياة هكذا»، قال، وهزّ كتفيه لامباليًا.

«ولكنَّكم انهزمتم»، قلت.

«وأنتم انهزمتم»، قال.

«ليس بالضبط»، قلت.

«أخبِرْني عن حياتكم في المخيمات، ثم حدِّثْني عن النصر والهزيمة».

«سأخبرك عن موتي»، قلت، «أنتم قتلتموني».

«نحن قتلناك، وأنت قتلتنا، هذا ما أحاول شرحه لك»، قال نصري، «نحن انهزمنا وأنتم انهزمتم».

«كلنا انهزمنا»، قال مارو ورفع كأسه، «كعبو أبيض يا شباب، كاس الهزيمة!».

رفع الشباب كؤوسهم، وشربوها حتى آخر قطرة.

«علينا أن نذهب، تشرَّفنا بمعرفتك يا دكتور، لا تزعل، للحديث صلة». وطلب نصري الحساب، ودفع، وذهبوا كلهم.

كنت أريد أن أقول، لكنِّي لم أقل، كنت أريد أن أقول عن الانتفاضة، لقد انهزمنا وهذا صحيح، لكن القضيَّة مستمرة، ولكن ذلك الحجر أغلق فمي.

نصري دفع ومضى، وأنا خجلت لأنَّ صديقي الكاتب لم يمد يده إلى جيبه.

شعرت بالدوار بين أكوام الصحون الفارغة، لكنِّي لم أكن سكران، لم أشرب سوى ثلاث كؤوس عرق، لكنَّه الانفعال. نظرت إلى ساعتي، وقلت إنَّ جوزف لن يأتي.

«ما رأيك بفنجان قهوة»، قال جورج.

قلت «عظيم»، ورفعت يدي كي أطلب فنجانَيْ قهوة، فامتدَّت يد جورج إلى يدي وأنزلتها.

«لا مش هون، نذهب إلى مقهى».

جلست إلى جانبه في سيارته «الرينو» الحمراء وسار بي